الأطماع الاقتصادية القرطاجية والرومانية في نوميديا

أ.د. شافية شارن
قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2

اشتهرت نوميديا (الجزائر) في العصور القديمة بوفرة مواردها وتنوعها، مما أسال لعاب الكثير من القوى الإفريقية والمتوسطية، وأثار فيها الرغبة في الاستحواذ عليها، ولهذا الغرض توافد عليها منذ القرن الثاني عشر قبل الميلادي تجار من شرق البحر الأبيض المتوسط، كالفنيقيين والسوريين والمصريين والإغريق، ومن غرب المتوسط كالقرطاجيين والرومان .

إن الهدف من وراء هذا البحث هو إماطة اللثام عن القوتين اللتين ارتبطا تاريخهما بمملكة نوميديا في فترتين متعاقبتين وهما، قرطاجة من القرن الثالث إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وروما من منتصف القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الخامس ميلادي.

وللغوص في هذا الموضوع الذي لم يحظ في اعتقادي بالقدر الكافي من الدراسة، ارتأيت عرض العلاقات السياسية والعسكرية التي كانت تربط قرطاجة وروما بنوميديا، باعتبارها ممهدة لأطماع أخرى كثيرة، وقد ركزت اهتمامي أساسا بالبحث على أطماعهما الاقتصادية لمعرفة مدى استفادة كل طرف من الثروة النوميدية، وحجم هذه الاستفادة وأهميتها

أولا) العلاقات السياسية والعسكرية النوميدية القرطاجية :

شهدت قرطاجة بين سنتي 241 و237 ق.م. حرب المرتزقة الليبيين، وقد تزامن ذلك مع فقدانها إلى مصادر تموينها بالحبوب بصفة عامة والقمح بصفة خاصة، والمتمثلة في جزيرتي صقلية وسردينيا، وهذا جعلها تسعى إلى تعويض ما فقدته،

فتوجهت بأنظارها إلى السهول الكبرى بحوض وادي مجردة (Bagradas)، واستولت عليها(1)، وأرغمت سكانها على دفع ضريبة الجزية، كما أجبرت الرعايا الليبيين والاسبان وجميع الخاضعين لسيادتها على تموينها بالحبوب الضرورية لجيوشها وتجارها(2) . ووفق ذلك قدمت نوميديا مختلف الإمدادات الضرورية للجيوش القرطاجية في مختلف حروبها داخل إفريقيا وخارجها.

1) المساعدات العسكرية النوميدية إلى قرطاجة :

تشير القرائن إلى تقديم نوميديا مساعدات عسكرية لقرطاجة قبيل القرن 5ق.م.تاريخ بروز هذه الأخيرة كقوة سياسية و اقتصادية دون منازع في حوض المتوسط و من هذه المساعدات تلك التي قدّمتها لها في حروبها ضد إغريق صقلية في عام 397ق.م.(3)، وفي عام317ق.م. ضد أغاثوكليس (Agathocle) (4) طاغية سراكوسة (Syracuse)، ضف إلى ذلك تلك التي دعمتها بها في صراعها مع الرومان في كل من صقلية واسبانيا وشبه جزيرة ايطاليا كما يبرز من الجداول التالية :

_المساعدات العسكرية النوميدية الى قرطاجة في صقلية :

السنة	عدد الجنود	المصدر
131ق.م.	20 ألف	Polybe ,histoire ,edit ,Buttner (The),1962/63 ,I,67,7.
211 ق.م.	3000	Tite Live ,histoire romaine, édit ,WW. Weissenborn ,et,H.J.Muller,1964,XXII,9 ; XXXV,8 ;XXXVI,3.
208 ق.م.	3000	Tite live , XXVII,20,8
206 ق.م.	4000	Ibid.,,11,35 ;Gsell(S) ; histoire ancienne de l'Afrique du nord, Germanie,1971,t,3,p216.
150 ق.م.	6000	Appien, lib. , 70.
148 ق.م.	800	Ibid. ,111.

ـ المساعدات العسكرية النوميدية إلى قرطاجة في اسبانيا:

السنة	عدد الجنود	المصدر
237 ق.م.	جيش كبير	Polybe, op.cit.,III,56,4
220 ق.م.	1800	Ibid.,III,33,15.
212 ق.م.	5000 جندي بقيادة ماسينيسا	Camps(G,Massinissa ou les débuts de l'histoire, Libyca_épigraphie,tVIII,1960 ,p.226

ـ المساعدات العسكرية النوميدية إلى قرطاجة في شبه جزيرة ايطاليا:

السنة	عدد الجنود	المصدر
261 ق.م.	1000 إلى حملقرط برقة	Polybe ,I,78,9 :84 ;4
201/218 ق.م.	قوات أخرى إلى حنبعل	Plutarque ,la vie des hommes illustres ,trad. Amyot ,édit Gallimard, Tours, 1977,10.

و في هذا الصدد، يبدو أنّ الدعم النوميدي للقرطاجيين لم ينحصر في تقديم الجيوش البرية فحسب بل تعداها ليشمل الوحدات البحرية و ذلك لسببين اثنين : الأول يتمثل في كون جزء من الصراع القرطاجي الروماني دار رحاه في البحر، والسبب الثاني يكمن فيما يعتقد في أنه كان لماسينيسا أسطول تجاري وسفن خماسية المجاديف (5) كما يحتمل أنّ نوميديا زوّدتهم بفيلتها الكثيرة حينذاك والمستعملة في الحروب.

2) المساعدات العسكرية النوميدية إلى روما :

يعتبر سيفاقس (Syphax 219- 203 ق.م.) (6) أول ملك نوميديّ تحالف مع الرومان، حيث دعّمهم عسكريا خلال الحرب البونية الثانية في حربهم ضد القرطاجيين المتحالفين مع الملك غايا، الذي أرسل ابنه ماسينيسا (Massinissa) [7] إلى اسبانيا على رأس جيش قوامه 5000 مقاتل لمؤازرتهم، لكن وبعد حرب دبلوماسية

حامية الوطيس، نجحت قرطاجة في عام 204 ق.م. في جلب الملك سيفاقس إلى صفّها، على أساس أنه كان يعتبر الأقوى في المنطقة، مما أدىّ إلى تغيير ميزان القوى في المغرب القديم و إثرها شعر ماسينيسا بتخلي قرطاجة عنه، فتحالف مع روما التي نقلت الحرب إلى افريقية بقيادة سكيبيو الإفريقي (. P.C.Scipion l'Africain) الذي استفاد من دعم ماسينيسا الثمين له، في وقت كان بحاجة إلى مساعدة بعد تخلي سيفاقس عن تحالفه مع روما، وتجلت تلك المساعدة في حسم الحرب في معركة زاما في عام 202 ق.م. بعد أن ساعده في معركة السهول الكبرى ضد خصمه سيفاقس سنة 203 ق.م. والتي انتهت بأسر هذا الأخير في شهر جوان من نفس العام (8) . وبعد دخول ماسينيسا سيرتا(Cirta) واعتراف مجلس الشيوخ الروماني به ملكا على عرش والده ،أخذ يضمّ أراضي عدوّه مما دفع بفرمينا (Vermina) ابن سيفاكس إلى محاولة التقرب من الرومان وتمتين علاقته معهم لكن ماسينيسا أفشل تلك المحاولات بإرساله مساعدات متتالية إلى الرومان تتلخص في .

السنة	عدد الجنود	المصدر
200 ق.م.	1000جندي و200.000مكيال من القمح وكمية مماثلة من الشعير (حوالي 14.0000 قنطار من القمح و10.500 قنطار من الشعير) لدم الجيش الروماني في حربه ضد مقدونيا بقيادة الملك فيليب الخامس (Philippe V)	Tite live , XXXI,11,10 ;19,4.
198 ق.م.	1000 جندي و10فيلة. 200.000مكيال من القمح (حوالي 14.000قنطار) إلى الجيش الروماني المتمركز ببلاد الإغريق لمحاربة فيليب الخامس .	Ibid. ,XXXII ,27 , 2
191ق.م.	500فارس و20فيل و500.000مكيال من القمح و300.000من الشعير إلى الرومان المتواجدين ببلاد الإغريق لمحاربة الملك السلجوقي. (Mégas Antiochos III)	Ibid. .,XXXVI,3,1,et 4,8

//	300.000مكيال من القمح و250.000مكيال من الشعير إلى روما	Ibid., XXXVI, 3,1
171ق.م	1000جندي و1000 من المشاة و22 فيل بقيادة ابنه misagène لدعم الجيش الروماني ضد (Persée) ملك مقدونيا	Ibid., XLII, 6,2
//	كمية من القمح إلى الجيش الروماني في مقدونيا.	Ibid.
//	جيش بقيادة ماسكبا(masgaba) لمساندة الرومان في حربهم الثالثة ضد مقدونيا	Ibid., XLIII ,6,1

في مقابل ذلك وقف الرومان إلى جانب ماسنيسا لاسترجاع عرش أسلافه المغتصب من قبل سيفاكس والقرطاجيين (10). وعلى نهج ماسينسا ، سار من جاء بعده من ملوك نوميديا وظلوا يدعّمون الرومان كما يتضح من الجدول التالي :

السنة	عدد الجنود	المصدر
134 ق.م.	جيش بقيادة يوغرطا إلى (Numance) باسبانيا لمساندة الرومان	Salluste , guerre de Jugurtha , A. Ernout, Paris , 1958,V,15.
46 ق.م.	جيش بقيادة الملك يوبا الأول (Juba I) لمساندة بومبي ضد قيصر في افريقية	Dion Cassius ,histoire romaine , trad. .Gros(E) Paris,1845/70 ,XLII,158 ; Suétone , vie des douze Césars, édit .Aillot(H), 1922,Caesar n°59/69.

ثانيا) ألأطماع الاقتصادية القرطاجية والرومانية في نوميديا:

بعد التطرق إلى طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية التي كانت تربط نوميديا بقرطاجة وروما نحاول إبراز الأطماع الاقتصادية القرطاجية في نوميديا .

1) الأطماع الاقتصادية القرطاجية في نوميديا :

زخرت نوميديا بثروات عديدة ومتنوعة وهذا جلب إليها أنظار القوى الكبرى في المتوسط وعلى رأسها قرطاجة وروما . وقد اهتمت قرطاجة بالمنتجات الزراعية

النوميدية وكذلك بثروتها الغابية والحيوانية والمنجمية بما فيها المحاجر و قد استفادت قرطاجة كثيرا مما قدمته لها نوميديا على شكل مساعدات أو التزامات ضريبية في تلبية حاجياتها الداخلية وكذلك في تجارتها الخارجية حيث سوّقت جزءا من المنتجات النوميدية في أسواقها المنتشرة عبر حوض البحر المتوسط .

. في المجال الزراعي، لم تدخر نوميديا جهدا في تموين جيوش قرطاجة بالقمح والشعير وزيت الزيتون، وفي دعم تجارتها بمثل هذه المواد الغذائية الأساسية، فضلا عن مواد غذائية أخرى لا تقل أهمية كالتمر والتين .

و بحكم احتواء نوميديا على ثروة غابية متنوعة وذات جودة عالية مثل أشجار السرو (cyprès) والعفصية (thuya) والبلوط (citrus)(10) إضافة إلى الأرز، فقد استغلت قرطاجة أخشابها في بناء معابدها (11) وفي صناعة عرباتها وأثاثها وكذا سفنها الحربية منها والتجارية التي يقوم عليها اقتصادها.

ونظرا لوفرة ثروتها الحيوانية المتمثلة في قطعان الماشية فقد استفادت قرطاجة من لحومها ومشتقاتها كالصوف والجلود التي استغلت في صناعتها النسيجية ، ورغم إنشائها لمزارع خاصة بالفيلة داخل أراضيها فقد عمدت قرطاجة إلى جلب أعداد أخرى من بلاد الجرامنتيين (Garamantes). وفي هذا المجال دائما تكون قرطاجة قد استفادت من أنياب الفيلة النوميدية المستعملة في صناعة الحليّ والأثاث وكذا من جلود بعض حيواناتها كالفهود التي كان الطلب عليها مرتفعا .

إلى جانب الثروة الزراعية ،الغابية والحيوانية ، وجّهت قرطاجة أنظارها إلى المعادن النوميدية كالحديد والرصاص والنحاس المستعمل في صناعة الأسلحة والسفن فضلا عن الفضة في صناعة الحليّ كما استغلت الرخام النوميدي المشهور في مختلف المنشئات والصناعات .

و الملاحظ أنّه عند تسويقها للمواد الاقتصادية في المتوسط، كانت قرطاجة تتكتّم عن مصادرها بهدف تجنب المنافسة ، ولضمان فكرة احتكارها لها دون سواها فقد كانت شديدة الحرص على منع روما من التعامل مع نوميديا ومع غيرها من البلدان التابعة لها.(12)

2) الأطماع الاقتصادية الرومانية في نوميديا :

مباشرة بعد احتلالها لشرق نوميديا في عام 46 ق.م وبعد سيطرتها في عام 40 ميلادي على قسمها الغربي الذي أطلق عليه اسم موريطانيا القيصرية سارعت روما إلى جمع الغنائم وفرض ضريبة الجز ية (Stipendium)على أهلها . كما بادرت إلى بمصادرة أراضيها و توزيعها على النحو التالي :

- جزء منح إلى الطبقة الأرستقراطية الرومانية .
- جزء آخر كونت فيه مستعمرات رومانية، ووطنت فيه معمرين رومان من الذين فقدوا أراضيهم في روما .
- جزء ثالث بيع في المزاد العلني بروما وقد اقتناه والفرسان (chevaliers)
- الجزء المتبقى، وهو عادة الأقل خصوبة ترك للأهالي يستغلونه مقابل ضريبة عينية .

و قد خصصت روما معظم الأراضي النوميدية لزراعة الحبوب، وعلى رأسها القمح وهذا نتيجة :

حاجتها الماسة إلى هذه المادة الحيوية، والذي يعد إلى جانب قمح صقلية وكورسيكا من أجود الأنواع وأقلها تكلفة مقارنة بالقمح الإيطالي .

- تراجع مردود الزراعة في شبه جزيرة إيطاليا بعد الحروب التي شهدتها، واختفاء المزارع الصغرى والمتوسطة التي كانت تهتم بزراعة الحبوب، وانتقالها إلى الطبقة الأرستقراطية والفرسان التي حولتها إلى زراعات مربحة مثل الكروم والزيتون، وأحيانا إلى منتزهات.

- توزيع روما الغذاء المجاني المتمثل في القمح على العاطلين الرومان ابتداء من 59 ق.م. والذين تراوح عددهم بين 150 و320 ألف مستفيد، ما جعل المقاطعات الإفريقية، ومنها نوميديا وموريطانيا القيصرية تمون روما بالحبوب لمدة ثمانية أشهر في السنة، بينما تساهم مصر بالجزء المتبقي(13) .

و خلافا لما ذهب إليه بلينوس الكبير (14) حين قال" وهبت الطبيعة إفريقية إلى كيريس(Ceres) إلهة الحبوب، ولم تمنحها الزيت والخمر إلا للتذوق " (Cereci totum id natura concessit oleum oc iunum non inuidit tantum)، فإن روما جلبت منها كميات معتبرة من زيت الزيتون والخمر، كما استوردت منها بعض

الفواكه(15) .، خاصة ابتداء من القرن الثاني ميلادي بعد صدور التشريعات الفلاحية المعروفة بقانوني مانكيانا وهادريانا. على نحو قرطاجة، استغلت روما الأخشاب النوميدية بأنواعها، المتوسطة الجودة في تسخين الحمامات (16) وفي صناعة القطران وفي البناء ،أما ذات الجودة العالية فخصصتها لصناعة الأثاث الرفيع كالطاولات المشهورة ولبناء السفن (17) ولاستخراج زيوتها (18). ولضمان نقل هذه الثروة خصصت روما أسطولا بحريا قوامه 60 سفينة .

أما الثروة الحيوانية بنوعيها المستأنسة والمتوحشة فقد سخرتها روما لتلبية حاجاتها باعتمادها على ماشيتها وطيورها كالغرغر(pintade) والنعامة إلى جانب الخيل كما استقدمت إليها الحيوانات البرية لاستهلاك لحمها كلحم الطريدة والخنزير البري والظّبي(19) ولعرضها في المسارح كالأسد والفيل والنمر والفهد.، وقد بلغ اصطيادهم الحيوانات البرية المتوحشة درجة تسببت في نهاية المطاف في اختفاء الكثير من أصنافها .

بالموازاة مع ذلك اهتمت روما بالثروة المعدنية النوميدية فاستغلت القليل منها في عين المكان في بعض الصناعات وأرسلت القسم الأكبر في شكل سبائك إلى شبه جزيرة ايطاليا (20).

والحديث عن المعادن يجرنا بالضرورة إلى التطرق إلى المحاجر كالرخام النوميدي الذي ذاع صيته في العالم آنذاك لتعدد أنواعه وألوانه من الأبيض إلى الأصفر والوردي فالأحمر والأسود وتمّ نقله إلى ايطاليا منذ عهد الملك مكبسا (Micipsa) لبناء وتزيين مساكن الأثرياء و الأباطرة أمثال هادريانوس (Hadrianus .P.A 117/138م.) وتكتوس (M.C.Tacitus 275/ 276م.) والإخوة غورديانوس الأول والثاني والثالث (Gordianus I,II,III 238/ 244) (21).

و لمضاعفة عملية استغلال الموارد، عمدت روما إلى جمع عمال مختلف القطاعات في اتحادات أو جمعيات (corporis, collegia) معفاة من أداء الخدمة العسكرية ومن دفع الالتزامات العامة ومن حق المساهمة في الشؤون السياسية لكنها تخضع لمراقبة الدولة ويمكن حلّها عند ارتكابها لتجاوزات.ومن هذه الاتحادات هناك آثار اتحاد ناقلي الأخشاب في مدن نوميدية كثيرة . (22)

لكن ومع مرور الوقت أضحت مهام هذه الاتحادات في القرن الثالث الميلادي مرهقة وإجبارية في نفس الوقت مما نتج عنه تمرّد الكثير من الاتحادات و فرار عناصرها وإثرها لجأت السلطة إلى أسلوب القمع وإجبار الفارين منهم على العودة

إلى نشاطهم مثلما حدث مع اتحاد البحارة (corporis navicullariis) احد أهم الاتحادات الإفريقية للدور الأساسي الذي كان يلعبه في نقل ضريبة التموين السنوية (annone) إلى روما، وأمام فشل هذا الأسلوب قام الإمبراطور كومودوس (L.A.A.Commodus 192/180) بتكوين أسطول بحري ضخم أطلق عليه اسم" هرقل "(classis herculae) وأسطول أخر خاص بنقل الحبوب classis (frumentaria)(23) ومن ثم احتكرت السلطة مهام هذا المجال.

بعد هذه اللّمحة الوجيزة عن الأطماع الاقتصادية القرطاجية والرومانية في نوميديا يمكن استخلاص جملة من النتائج ندرجها كالتالي:

. أدت المساعدات العسكرية التي قدّمتها نوميديا إلى حلفائها قرطاجة وروما، إلى إسالة لعابها وفتح شهيتها مما دفعها إلى الهيمنة الاقتصادية عليها .

. غنمت القوتان سالفة الذكر فوائد جمّة : بشرية ومادية، بحيث مكّنتها الإمدادات العسكرية النوميدية من تقوية جيوشها ومن تحقيق الانتصارات و بناء إمبراطورية شاسعة كما استفادت من اليد العاملة المحليّة في خدمة وتدعيم هياكلها، أما الإمدادات الاقتصادية المتنوعة فقد أهّلها للبروز كقوتين اقتصاديتين كبيرتين في البحر الأبيض المتوسط .

. يبدو أنّ أطماع روما في مقاطعة نوميديا كانت تفوق بكثير أطماع قرطاجة، وقد يعود سبب ذلك إلى اعتبارات كثيرة، منها أنّ نوميديا لم تتبع قرطاجة إلاّ لمدّة وجيزة، بينما خضعت للسلطة الرومانية لمدّة خمسة قرون كاملة، وكذلك لانحصار الوجود القرطاجي في المناطق الساحلية، حيث لم تتوغل قرطاجة إلا قليلا في المناطق الداخلية، في حين وصل الاحتلال الروماني إلى حافة الصحراء . وقد يعود أيضا إلى عدد المصادر الكلاسيكية التي تناولت موضوع العلاقات الاقتصادية لنوميديا مع قرطاجة وروما ، فهي شحيحة جدّا فيما يتعلّق بالأولى بينما غزيرة فيما يتعلّق بالثانية، لأنّ معظم هذه المصادر اغرقية ولاتينية في حين أنّ المصادر القرطاجية اتلفت عند تدمير المدينة.

. أدى استغلال قرطاجة ثم روما لموارد نوميديا إلى تناقصها تدريجيا بحيث استنزفت بعض مناجمها وانقرضت بعض حيواناتها المتوحشة وأنهكت شعبها .

. بعد استغلال الموارد البشرية والمادية على حدّ سواء ، لم يتوان الرومان عن القول أنهم لم يستعمروا نوميديا لأسباب اقتصادية، بل لتحريرها من قرطاجة، و نشر حضارتهم الراقية التي قامت على أنقاض الحضارة الإغريقية .

الهوامش

1) منها منطقة سوق الأربعاء وسوق الخميس وباجا (Vaga)و مكثر وغيرها.
2) نصحي (ا.ق.)،تاريخ الرومان ،الجزء الثاني ،القاهرة ،1978،ص246.
3) Diodore de Sicile ; bibliothèque historique ,trad .F.Oefer , edit.Olfather1933/1967 ,XIII, 80,3 .
4) Ibid. ,XX,18,7
5) Cicero , verrines ,acte II, 4 ,46
6)ملك نوميديا الغربية المعروفة باسم ماسيسيل(Masaesyles)
7)ملك نوميديا الشرقية المعروفة باسم ماسيل(Massyles).
8) تعود أسباب هذا التحوّل إلى تنكر القرطاجيين للصداقة التي كانت تربطهم بماسينيسا بعد الخدمات الجليلة التي قدّمها لهم، وراحوا يتحالفون مع عدوّه سيفاكس .
9)بلغ عدد المدن التي ضمتهم قرطاجة واسترجعها ماسينيسا حوالي خمسين منها دفعة(كما استولت على مدن أخرى ليبية كانت تابعة له وهي طرابلس ولبدة وصبراته) راجع Appien; Tite Live, XLII,2,23 ,68
10) Pline l'ancien ,histoire naturelle , trad. Beaujeu (J), édit. belles lettres,1950,X,79 (11 Gsell(S), op.cit .,TV, p211
12)تعد معاهدة 509المبرمة بين قرطاجة وروما الأولى بين البلدين، ويقضي أحد بنودها بمنع روما ممارسة تجارتها غرب قرطاجة بمعنى نوميديا راجع . Polybe ,III, 1,24 ;XVII,1,19
13) Flavius Joseph, guerre des Juifs, II, 16,4 ;Lecocq(A), le commerce de l'Afrique romaine , B.S.G.O ,1912,XXXII. p377
14) Lecocq (A), op .cit ., XV, 8
15) Homo(L), l'empire romain, Paris, 1969,p36
16) Cagnat(R), armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs , 2edit. Paris, 1901 ,pp,247/77
17) Rostovtzeff(M.I),histoire économique et sociale de l'empire romain ,Paris , 1988 , p ,63
18) Ibid.,p63
19) Macrobe ,les saturnales ,trad. Borneco (H); Paris, 1975 ,II,13,43,9 ;Gsell(S), op.cit.,t6,p84
20) Lequément (R) , la mer et ses rapports avec l'homme méditerranéen, acte du 3 congrès international d'étude et de la culture de la méditerranée occidentale , Paris , 1981, p133 .
21) Perkins (J.w), Tripolitania and the marble, journal of roman (22studie,1951vol.XLI,p44)في قسنطينة : CIL ., VIII, 3531، وثموقادي : CIL., VIII, 3545/10523 ، وسطيف : CIL,VIII,6940.، ولمياز : CIL ., VIII.17907و سكيكدة : CIL., VIII, 8457 ، وتيبازة : ILALG.; 1983. ، والقبصرية(شرشال)9401, C.I.L, VIII,
22) Casson (L), les marins dans l'antiquité, explorateurs et combattants sur la méditerranée ,Paris; 1961, p,252